رجل الخطايا الصعبة

محمد تامر

رجل الخطايا الصعبة

تأليف: محمد تامر

بسم الله، والصلاة والسلام على رسول الله

لله الشكر والحمد والفضل على سائر نعمه عموماً، وعلى نعمة إلهامه لي بإتمام هذا العمل الأدبي خصوصاً، وهو الموفق والمستعان. اللهم انصر إخواننا في فلسطين، وثبت أقدامهم وانصرهم على أعدائهم وخاذليهم. اللهم آمين.

تـــنـــويـــه

أحداث هذه القصة تدور في مكان وزمان مستقبليين شبه خياليين غير محددين، وأي تشابه بين عناصرها وبين واقعنا وحاضرنا الحاليين قد يكون من باب المصادفة.

مــلـحـو ظـة

سرد القصة يعتمد على تتابع المشاهد؛ وهو نظام سرد أجربه للمرة الأولى تقريباً كمحاولة مني لإضفاء طابع سينمائي سريع الوتيرة على أجواء السرد والقصة بشكل عام، لن أتحدث عنه كثيراً لأنك ستفهمه ببساطة أثناء القراءة.

إذا أعجبك فلا بأس، وإذا لم يعجبك فلا بأس برضو!

إ هـد ا ء

إلى زوجتي المستقبلية العزيزة، قبلة حانية وبعد...

وددتُ أن أُعلِمَكِ وحسب أنني انتهيت تواً من كتابة نوفيلا جديدة هي تلك الماثلة أمامك، وأنني حقاً أشتاق إليكِ وإلى كلماتك ومشاعرك التي تعبر الزمان والمكان لِتُحَيِّيَ قلبيَ ووجداني!

لكم أحب هذه العادة المباركة؛ أن أكتب لكِ إهداءً مع كل عمل أنهي كتابته، لا أظنكِ ستجدين إخلاصاً كهذا من شخصٍ غيري فلا تضلي طريقكِ عني، لا أحد سيعشقك بهذا القدر قبل أن يلقاكِ أو يتيقن من وجودك غيري!

فليشهد الله أنني إذا كنت أتمنى منه في هذه الدنيا الدنيا* أموراً ما؛ فستكون إعانته لي على طاعته، ونصرة الإسلام وانتشاره في بقاع العالم، وحرية إخواننا بفلسطين، وأخيراً أن أحيا إلى يوم ألقاكِ يا مهجتي، ويا موسيقى وجداني وألوان روحي!

أتوق إلى اليوم الذي نجلس فيه سوياً جنباً إلى جنبٍ نحتسي الشاي ونتحدث عن الدين والحياة والفلسفة والأدب، وعن سر حب النساء للون الزهري، وعن سبب كون باتمان هو الشخصية الخيالية الأشهر على الإطلاق والأقرب لقلوب متابعي الكوميكس، وعن سر حبي لكِ عندما ترتدين ثياباً طويلة من الحرير أو عندما تضحكين على دعابة سخيفة من دعابات المثقفين المتشائمين خاصتي!

وكختام أذكر لكِ منها دعابة؛ وهي أن رجلاً نظر ذات مرة إلى الأفق وقال بإيمان وتصديق: "سيكون كل شيء بخير، وسيصبح الناس أحراراً وسعداء!"

هاها! أجل يا عزيزتي؛ أنا أيضاً ضحكت ملء نفسي حين سمعتها للمرة الأولى، وتحديداً جزئية "بإيمان وتصديق" التي جعلتني أشهق من الضحك!

---

*الدنيا الثانية نعت للأولى

المشهد الأول

"....وقد تم اعتقاله مؤخراً بعد ثبوت ارتكابه لحوالي أربعين جريمة قتلٍ لضحايا مختلفين دون قاسم مشترك بينهم؛ مما يجعلنا نفترض إلى حين وضوح الحقيقة المستترة وراء بشاعة تلك الأحداث، أن هذه الجرائم كانت عشوائية، وربما متسلسلة...."

تردد صوت المذيع الإخباري وهو ينقل هذه الأنباء العاجلة عبر أجهزة التلفاز الموجودة بزنزانات السجن، ومرت بضع دقائق على السجناء وهم يستمعون إليها قبل أن يشرفهم فرد جديد!

نظروا جميعاً إلى هذا القادم بأعين مفتوحة عن آخرها، وتبادلوا الهمسات والعبارات عبر فتحات الجدران بنبرات متعجبة، وقد ارتفع صوت أحدهم وهو يقول: "أينما وضعوك ستظل أنت مَلِكُنا وبطلنا!"

لم يرد السجين الجديد، وإنما اكتفى بالسير جنباً إلى جنب مع حارسه إلى أن وصلا أمام زنزانته الجديدة، ليفتح الحارس بابها ويفك أصفاد السجين ويدفعه إلى الداخل قائلاً بتهكم: "يبدو أنه لديك معجبين كثر هنا، على الأقل ستهون عليك الرفقة كثيراً من الوقت، قبل أن نشهد بأعيننا حكم إعدامك كما آمل!"

جلس السجين وحده في إحدى زوايا الزنزانة، وبمجرد أن انصرف الحارس بعيداً تحدث سجين الزنزانة المجاورة قائلاً لصاحبنا الجديد: "يا له من حدث كبير وشرف عظيم أن تنضم إلينا الليلة!"

عقد صاحبنا حاجبيه وسأل محدثه: "ولم عساك تقول هذا؟!"

=لأنه كما ترى، أنت قدوتنا هنا! إن عملك الرائع هذا ملهم حقاً لنا؛ أربعون جريمة قتل على مدار كل تلك الأشهر والأعوام دون أن تقبض الشرطة عليك! إنك حقاً أسطورتنا ورمز كبير لنا هنا!

-إذن، جميعكم هنا مختلون تحبون القتل مثلي، أليس كذلك؟!

=لا تنعت نفسك بالمختل، بل أنت عبقري وبطل!

-اسمع يا صاح، أياً كان ما ترونه هنا وتظنونه فأنا أود أن أخبرك بشيء واحد مؤكد؛ وهو أنني لم أفعل هذا للمتعة بأي حال من الأحوال، ولا لأكون رمزاً أو أسطورة لأحد، أنتم فقط لا تفهمون الأمر وهذا لا يهمني!

=إذا كان هذا ما لديك لتقوله فإما أنك أحمق أو كاذب؛ فدرب الجريمة تميزه المتعة والسهولة، وإشباعه لكل ما تشتهي، أما درب الخير والرضا وهذا الهراء فيميزه الملل والصعوبة، وأنه غالباً ما يجعل أصحابهم على حافة النهاية طوال حياتهم!

-وإذن، أتعلم ما اشتهيته وجعلني أفعل ما فعلت؟

=كلا، ترى ما هو؟!

-بالطبع لا تعلمه، وبالطبع لن أخبرك!

=....لكن لا يمكن له أن يكون غامضاً جداً بأي حال؛ ربما المال أو السلطة، ربما الانتقام أو....

-صدقني، لا شيء مما خطر أو سيخطر ببالك صحيح!

=أتحاول إذن أن تخبرني أنك قديس من نوع ما، أو رجل ذاق أنوار الملائكية وطهرها وقرر أن يريح عينيه منها لبعض الوقت؟!

-كلا، ما أحاول إخبارك به هو أنني أود الآن أن أنام، ولذا فأرجو منك أن تصمت!

=بالطبع، لك هذا....ولا بأس بأية حال، اهرب، لكنك ستظل دائماً من أنت عليه، هذا هو إرثك...حتى ولو كنت قديساً أو ملاكاً ذا أجنحة يحفها النور، اعلم أن هذا النور ليس من نصيبك أو نصيب من هم أمثالنا!

المشهد الثاني

في وقت ومكان آخرين...

"أيها السادة، لدي أخبار سيئة لكم!"

أنهى المتحدث جملته ثم قام من مكانه حول طاولة اجتماعات كبيرة ضمت عشرة رجال حولها، في غرفة تعزلها عن المبنى والعالم جدران معدنية صلبة، ونوافذ ذات زجاج مضاد للرصاص، وتابع حديثه بعد أن شغل شاشة العرض الإلكترونية المعلقة على أحد الجدران: "إن جنودنا على ما يبدو قد أصبحوا حساسين تجاه بعض الأوامر، وكثرت أسئلتهم عن مواضيع شتى، خصوصاً وتحديداً إذا تعلق الأمر بالاغتيالات الداخلية؛ إذ أن دراستنا للأحوال النفسية العامة لهم تبين انخفاضاً في نسبة استعدادهم لارتكاب القتل خارج سياق الحروب؛ يمكنهم أن يردوا مهاجمينا من الخارج قتلى ولكن ما دون ذلك فإنهم يرفضون، وهذا بالطبع سيضر بمصالحنا جداً إذ أن انعدام ضمان قدرتنا على اغتيال من يعادوننا من الشعب أو من غيره يستحق أن يُعتَبَر أمراً فائق الخطورة!"

أخذ الرجل نفساً عميقاً ثم تابع الحديث: "أن نكون قادة للجيش ولا نُطَاع من قبل جنودنا...هذا أمر جد خطير! أنتم تعلمون أننا لا يجب أن نضيع السلطة من بين أيدينا، وأنه من المفترض أن يطيع جنودنا أوامرنا مهما كانت دون نقاش! بأي حال دعونا ننتقل الآن إلى أسباب هذه الظاهرة."

صمت لبرهة، ثم نظر إلى المستمعين وقال بتهكم: "الإله! والذي لا أدري لماذا قد يلقي بظلاله علينا الآن! إن جنودنا قد أصابتهم نزعة دينية مفاجئة، وتأثيرها للأسف شديد جداً عليهم لدرجة جعلتهم - كما أخبرتكم منذ قليل - يشكون في أوامرنا، ويجادلون في عمليات الاغتيال التي نأمرهم بها من حين لآخر...أيها السادة، إن هذه قد تكون أسوأ كارثة عاصرناها منذ أصبح جزء كبير من مقاليد حكم البلاد بين أيدينا!"

أنهى ذلك القائد حديثه، ثم عاد إلى مكانه حول الطاولة وسأل الحضور: "والآن أود أن أسمع اقتراحاتكم لحل هذه المشكلة، ماذا برأيكم ينبغي أن نفعل؟"

ساد صمت بين الجالسين لبضع دقائق؛ فقد كان الخبر صادماً لهم وهم الذين اعتادوا أن يُرَوا كآلهة منذ أن وطئت أقدامهم مجالس الحكم، وليس من السهل بالطبع أن يضطروا إلى مواجهة إله جديد أقوى منهم، ويحرك جنودهم - وكل شيء فيما بعد - ضدهم، لكن واحداً شجاعاً منهم كان مغروراً ومستعداً للمواجهة مع هذا الإله قطع هذا الصمت بتعقيبه على كلام من تحدث قبله: "يمكن أن نفكر في أي شيء مهما كان، ولكن لا يجب علينا أن نتخذ قراراً يسبب ضرراً لجنودنا؛ فنحن نحتاجهم في نهاية المطاف وآخر ما نحتاجه الآن هو ثورة أو انعدام ثقة منهم، أرجو منكم أن تعلموني ما إذا كنت مصيباً أم مخطئاً قبل أن أشرع في عرض مقترحي."

نظر الجميع إليه وقد أومأوا بالموافقة، ثم حثه القائد الذي كان يتحدث قبل قليل على المتابعة؛ فتابع: "كما أرى يا سيدي؛ فإن المعضلة الرئيسية الآن هي أن الجنود لديهم مشاكل مع بعض أوامرنا وتحديداً أوامر الاغتيالات الداخلية أو التي لا تتعلق بالحروب بشكل عام، وهي المشكلة ذات الأهمية القصوى بالطبع كما أرى أيضاً؛ أي أن كل ما نحتاجه لحل هذه

المشكلة هو أن نجد ضماناً جديداً لكوننا قادرين على تنفيذ عمليات الاغتيالات كيفما ووقتما نريد، هل تتفقون معي حتى الآن؟"

نظروا إليه ثانية وأومأوا بالموافقة مجدداً؛ فتابع مسرعاً: "وإذن دعوكم من الجنود ومن نزعاتهم الإيمانية السخيفة تلك ولنركز معاً على إيجاد ضمان جديد لهذا بعيداً عنهم، إذا لم يكن الجنود قادرين على القتل فدعونا نجد من يقدرون عليه، وهذا هو محور فكرتي الذي سأعرضها بعد أن تعلموني باتفاقكم معي حتى هذه النقطة!"

تبادلوا النظرات جميعاً، وقد بدت عليهم أمارات الشوق لمعرفة الفكرة، والإعجاب بهذا البطل الذي لديه جرأة كافية على الوقوف في وجه هذا الإله الجديد الذي قهرهم وشل تفكيرهم، وحثوه على المتابعة مجدداً؛ فتابع عارضاً فكرته: "يمكننا أن نجند بعض المجرمين الذين دخلوا زنزاناتهم كعقوبة لجرائم القتل، مقابل هويات وحيوات جديدة وحماية سرية من هذه القيادة العسكرية، ما رأيكم؟!"

تبادلوا النظرات ثانية لكنها هذه المرة كانت إما نظرات اقتناع بالفكرة، أو قلق منها، أو عدم الاكتراث بالعواقب أصلاً إذ أن الأولوية الأولى هنا أن تظل ألوهيتهم قائمة بأي ثمن!

وبعد بضع ثوان اعترض أحدهم قائلاً: "الفكرة رائعة، ولا أستطيع أن أنكر ذلك، ولكن ماذا لو زادت مطالبهم يوماً ما لدرجة لا نستطيع عندها تحقيقها لهم؟ ماذا لو وشوا بنا أو فقدنا السيطرة عليهم؟! سيقودنا هذا إلى مصائب أكبر!"

تحدث آخر مؤيداً هذا الاعتراض: "أجل، إننا نتحدث هنا عن المجرمين؛ فهم ببساطة...مجرمون! أنى لنا أن نثق بهم؟!"

بدأت أمارات اليأس تظهر على القائد صاحب الاقتراح، لكنه قال مبرراً فكرته: "إننا الآن على أعتاب كارثة مدوية، ولذا فعلينا أن نجرب كل شيء قبل أن نهلك جميعاً، لقد جاهدنا كثيراً من أجل التواجد في أماكننا هذه أيها السادة، ودفعنا ثمناً غالياً جداً في السابق، وإذا كنت سأتحدث عن نفسي فأنا لست مستعداً لأفقد كل هذا بسبب حفنة من المؤمنين الحمقى الجبناء، وسأفعل كل شيء لئلا أضيعه، وأثق أنكم جميعاً كذلك...أم أنه لا تزال لديكم أقوال أخرى؟!"

تجددت النظرات بين الحضور ما بين مؤيد ومعارض، لكن القائد الذي تحدث في البداية - والذي كان كبيرهم - تحدث مسكتاً كل الأصوات: "إنها حقاً لفكرة مدهشة، ورغم اعتراضات السادة هنا إلا أنني لا أرى ضرراً من المحاولة ولكن بشرط رئيسي يضمن أقل الخسائر في حال فشلت الفكرة: أن تبدأ الأمر برجل واحد؛ فهو لن يسبب مشاكل كثيرة إذا ما تعقدت الأمور، إن استطعت جعله تحت أمرك فسوف أسمح لك بالتجربة مع آخر، وليكن الهدف النهائي لهذه العملية هو تكوين فرقة كاملة منهم تأتمر بأمرنا، ولكن الأولوية أولاً لنجاح سيطرتك على رجل واحد!"

تهلل وجه القائد صاحب الاقتراح بالفرح، بينما سادت بعض نظرات الاستنكار بين باقي الحضور، إلى أن أنهى القائد الأكبر الاجتماع قائلاً: "وإذن كنهاية لهذا الاجتماع نود أن نشكر بطلنا هنا، وأود أنا شخصياً أن أعلن دعمي له؛ وبناء عليه أيها البطل لديك إذن بدء تجربتك مع رجل واحد، سأترك لك وقتاً لتراجع فكرتك وتحدد المطلوب وتعلمني به، وسنحقق لك كل

مطالبك بالطبع؛ علك تكون أنت منقذنا من هذا الجحيم الذي يحيط لهيبه بنا في الوقت الراهن!"

المشهد الثالث

بين جدران الوحدة والعقاب، مجدداً...

لبضعة أيام كان الصمت والظلام والجدران الجامدة أعز أصدقاء صاحبنا المسجون، والذي كان الناظر إليه يرى على وجهه تعابير اللامبالاة حيناً، وتعابير الندم حيناً آخر.

وتعابير الرضا حيناً ثالثاً!

في أحد تلك الأيام التي مرت على دخوله السجن، أتاه حارس العنبر بنبأ رغبة أحدهم في زيارته، وقال معقباً على النبأ بنبرة تجمع بين السخرية والعجب: "يبدو أن ما ارتكبته أثار اهتمام الجميع أيها الحقير...كباراً وغير كبار! لن أوصيك بأن تحترم زائرك!"

عقد صاحبنا حاجبيه وسأله بفضول: "من هو؟ أيعرفني؟!"

=لا أدري، وربما أنت نفسك لن تعرفه!

انصرف حارس العنبر، ومرت بضع ثوان قبل أن يدخل المكان رجل ذو مظهر عسكري مهيب، ويقترب من زنزانة صاحبنا وسط دهشة وصمت ورهبة جميع سجناء العنبر، ويقول له مبتسماً بعد أن وقف أمامها: "حسناً، إن لم يكن هذا هو بطل الشعب هنا في السجن!"

رفع صاحبنا عينيه إلى محدثه، وعندما رأى هيئته العسكرية ازدرد لعابه وسأله بقلق: "من أنت؟!"

أجابه بكلمة مقتضبة: "مُخَلِّصُك!"

-هه! إذن فلتعذرني يا سيدي عندما أقول أنه من الصعب أن أصدقك؛ فأنا لست معتاداً على تصديق ذوي الأزياء العسكرية!

=سأعتبر أنك لم تقل شيئاً كهذا وسأتابع حديثي، وسأقول لك أيضاً أنني لا أريدك أن تصدقني، بل أريدك أن تنتهز فرصة وحسب!

-أية فرصة؟

=الخلاص!

-وكيف ستخلصني يا ترى؟!

=لا أستطيع أن أخبرك قبل أن تعدني بالطاعة!

-الطاعة؟!

=نعم، ألا تعرفها؟!

-....وكيف لي أن أثق بك قبل أن أعدك؟!

=لأنك سَتُعدَمُ لا محالة، ولا بأس حقاً بأن أتركك تتعفن هنا وحدك في هذه الزنزانة قبل أن ينفذوا الحكم فيك، وإضافة إلى ذلك فإن ما سيحدث لاحقاً قد يضر بسمعتي كقائد عسكري ورغم ذلك هأنذا أمامك أعرض عليك فرصة، أظن أن هذه مبررات تكفي لكسب ثقتك! اسمع، أستطيع أن أؤكد لك شيئاً واحداً وهو أنك إذا أطعتني فلن يتم إعدامك، أما زلت تحتاج ضماناً أفضل من ذلك لتثق بي؟!

-...ربما لا!

=وإذن؟

-...قل ما لديك، وسأطيعك!

=عدني بالطاعة أولاً وسأقوله!

-حسناً، أعدك، والآن تحدث.

=أنت تحب القتل، أليس كذلك؟!

-ربما!

=الجواب المنطقي لمثل هذه الأسئلة إما نعم أو لا!

-وقد أخبرتك بجوابي!

=...إذن فلتشرحه لي!

-لا أستطيع أن أفعل ذلك!

=ولِمَ لا؟!

-لأنني لا أستطيع ذلك ولأن طاعتي التي وعدتك بها لن تكون عمياء كما تظن! أعلم أنني أخبرتك أنني سأطيعك، ولكن هنالك أمور لا أستطيع فقط أن أذكرها، وأرجو منك ألا تجبرني أن أتحدث عنها!

=...لا بأس، في الحقيقة كل ما يهمني هو أن تكون قادراً على القتل دون جدال، وبالنظر إلى جرائمك التسلسلية الجذابة يبدو أنك كذلك!

-...قل ما لديك وحسب!

=الأمر باختصار أنني أكون وحدة اغتيالات سرية؛ هدفها القضاء على رؤوس الفساد الذين يهددون أمن بلادنا، وبالطبع أنت تريد أن تخدم بلادك، أليس كذلك؟!

-لا آبه بالبلاد ولا بأمنها، وكلانا يعلم أنك تكذب، لقد وعدتني أنك ستخرجني من هنا وأن من ستكلفني بقتلهم يفسدون في الأرض حتى لو كانت أفعالهم ضدكم، وهذا كل ما قد أهتم به!

=وهذا رائع؛ فالمهم فقط أن تأتمر بأمري وألا تجادلني لأننا لن نقتل إلا الفاسدين، هل هذا واضح؟

-نعم، المهم أن تكلفني باغتيال أهداف ذوي قيمة!

=...ذوو قيمة وفاسدون، لك هذا بالطبع. سأرى ما يمكن فعله بشأن الأحكام عليك هنا.

-كيف ستفعل ذلك تحديداً؟

=التفاصيل لا تخصك، كل المشرفين هنا كما كل من في البلاد؛ نحن آلهتهم نوعاً ما! وكما تعلم بالطبع فإن العصيان مصير صاحبه الجحيم! ولكن إذا كان الفضول يدفعك للسؤال فسأخبرك ببعض التفاصيل؛ سأخبرهم أنك ستكون جزءاً من برنامج تجريبي سري لإصلاح المجرمين، أليست خطة مناسبة؟!

-هه! لهذا لا أحب ذوي الأزياء العسكرية!

=وأنا لا أحب المجرمين المتعطشين للدماء الذين ينتظرون حكم إعدامهم في الزنزانات!

-...أنت لست قديساً!

=ولا أنت!

-ما الذي يجعلك تظن أنني آبه حقاً للخروج من السجن؟ ألا يعقل أنني قد قبلت مصيري مسبقاً؟!

=أنا لا آبه بما تأبه به، السجن ملئ بالحثالة وأنا هنا أجرب حظي معك وحسب!

-...أقنعتني، إذن فلتفعل ما تحتاج إليه لإخراجي، ولك بعد ذلك مني ما تريد مما اتفقنا عليه!

=في غضون أسبوع أو أقل ستكون خارج زنزانتك، وخارج السجن كله، وداخل مشروعي أنا، لا تقلق إذ أن انتظارك لن يطول!

المشهد الرابع

بعد مرور شهر...

"يبدو أن وجودك هنا أفضل بكثير منه في السجن يا مالك، أليس كذلك؟!"

تحدث القائد بينما كان يقترب من صاحبنا مالك في ساحة التدريب على إطلاق النار بالمنشأة السرية التي زوده القادة بها دعماً له وتأييداً لفكرته، والتي لم تكن واسعة كثيراً في البداية كونها مخصصة - في الوقت الراهن - لرجل واحد، وكانت فارغة أبضاً اللهم إلا من حرسها الخارجي، وهذه مخاطرة كبيرة جداً في سبيل إبداء النوايا الحسنة!

وعندما أصبح بجانبه وهو يصوب مسدسه نحو أحد أهداف التدريب الوهمية أكمل حديثه: "لقد كان شهراً حافلاً، وقد شعرت فيه أنك تستمتع بكونك على طبيعتك هنا، أو أنك ترى حقيقتك أمام عينيك بمعنى آخر، هذا ما خُلِقتَ لأجله يا مالك!"

أطلق مالك رصاصة أصابت الهدف بدقة مبهرة، ثم رد وهو يعيد سلاحه إلى حزامه كما تدرب: "أنت لم تخلقني؛ ولذا فأنت لا تعلم لِمَ خُلِقتُ، ولا تعلم شيئاً عن حقيقتي!"

=ولا أنت؛ فأنت أيضاً لم تخلق نفسك!

-...متى سأحصل على مهمتي الأولى؟!

=إنها المرة العاشرة التي تسألني فيها تقريباً، أحب شغفك وشوقك هذين...قريباً جداً يا مالك ستحصل عليها وهذا ما جئت إليك الآن بشأنه!

-...أهي خطرة؟!

=أعلم أنك تريدها كذلك!

-وهل الهدف فيها شخص مهم وفاسد؟!

=بالتأكيد، كما وعدتك سابقاً!

-جيد، ماذا تريد أن تخبرني عنها إذن؟

=سِر معي يا مالك.

سارا سوياً حتى وصلا إلى مكتب القائد الموجود في وسط المنشأة، ودخلاه ثم اتخذا مجلسيهما على كرسيين متقابلين حول منضدة زجاجية متوسطة الحجم، وتناول القائد ملفاً كان موضوعاً عليها وفتحه، وبدأ يتحدث وهو يخرج بعض الأوراق من الملف ويضعها أمام مالك:

" هدفك الأول هو رجل خطير يود أن يُكَوِّن مقاومة ضدنا لأنه يرانا فاسدين وما إلى ذلك...وحتى إذا كنا كذلك فأنت تعلم أننا نهتم بالناس كما ينبغي، طالما أنهم يأكلون ويشربون وينامون آمنين فهذا يكفيهم، لكن هنالك من يشغلون بالهم بأمور لا تخصهم من أجل بعض الأمجاد الشخصية وعبارات المديح، نحن لا نحب أولئك الذين يحاولون تدوين أسمائهم في التاريخ على حسابنا، طالما أننا نعطيكم حقكم في الوجود فعليكم مبادلتنا ذلك بالسمع والطاعة، والصمت، ألا تتفق؟!"

-خطبة مؤثرة، ولكن لا يهمك كوني متفقاً أم لا، أما أنا فأهتم بكون الرجل فاسداً ومهماً كما أخبرتك!

=وقد وعدتك بذلك ولن أخلف وعدي، لقد أخبرتك أن هذا الشخص يكون مقاومة ضدنا؛ لذا فأريدك أن تتخيل عدد الذين سيقودهم إلى الهلاك بأفعاله تلك، إننا نقبل الثورات المسالمة نوعاً ما لكن صاحبنا هذا يبالغ في أفعاله وقد أصبح شوكة في الحلق، أهذا كاف ليجعله فاسداً بالنسبة لك؟!

-...مقاومة وثورات؛ أي ضحايا...أياً كانت مبرراته فلا أظنه يستحق أن يعيش!

=إذن فنحن على وفاق! بالنسبة لتفاصيل المهمة فهي بداخل الملف كما أخبرتك، عندما تصبح مستعداً وتحزم أدواتك سأجعل سائقاً تابعاً لي يقلك إلى الحي الذي يقطن به رجلنا، والذي به شقة خالية في مبنى مهجور استأجرناها لك، أرجو ألا تكون تخاف الأشباح!

-...لا أخاف إلا نفسي!

=أوه، والآن أليست هذه الثقة جذابة؟! على أية حال سأعطيك الملف لتدرسه في طريقك إلى هناك، لقد تحرينا عنه لكننا نود منك بالطبع أن تتحرى أكثر، والأهم بالطبع أن يكون القتل بلا أدلة أو شهود، وهنا لن أنصحك فأنت الخبير! لكنني سأنصحك فقط أن ترتدي قناعاً أو معطفاً خفيفاً بقلنسوة؛ لأن وجهك أصبح مشهوراً في التلفاز كما تعلم...ولا نود أن يفاجأ الناس في الشوارع بأن شخصاً قد تم إعدامه عاد إلى الحياة، ونحن في غنى عن القيل والقال، هل هذا مفهوم؟

-مفهوم.

=جيد، و...من الأفضل أن يكون القتل بلا دماء إن كنت تفهمني!

-...للأسف لا أستطيع؛ علي أن أرى الدماء!

=...أنت حقاً دموي لعين وهذا يعجبني! عندما تصبح جاهزاً أخبرني لتبدأ مهمتك يا مالك...يا رجل الخطايا الصعبة!

المشهد الخامس

في شقة مالك، بعد يومين...

جلس مالك على الأريكة يتأمل سكينه، ويدرس الملف الذي أعطاه القائد إياه على المنضدة الماثلة أمامه، وقد فهم منه باختصار أن الهدف صحفي مشاكس، خبير بالقتال واستخدام الأسلحة، ولديه عدة معارف يسعى لإقناعهم بتأسيس مقاومته المزعومة تلك، وأن هذا الرجل يحب فتاة ما حباً جماً ويقابلها داخل منزله وخارجه كثيراً، وبالإضافة إلى هذا فإن منزله تفصله بنايتين عن سطح البناية التي يتواجد بها مالك الآن.

بدأ مالك ينسج أفكاراً وخططاً واحتمالات في عقله، وعندما انتهى من دراسة الملف نظر إلى ساعة الحائط ليجدها تعلن اقتراب موعد أحد اللقاءات الأسبوعية الرومانسية المثيرة للغثيان بين الصحفي وحبيبته في منزله؛ فقام وارتدى سترته، ثم وضع قناعاً حديدياً رمادي اللون على وجهه وقلنسوة سترته على رأسه، وأخذ سكينه ومسدسه ومنظاره الصغير ليضعهم في جيوبه؛ ثم صعد إلى السطح ليبدأ مراقبة هدفه.

عندما وصل إلى السطح؛ اقترب من أحد حواف السطح، ثم أخرج منظاره واستلقى على بطنه، وبدأ مراقبة الصحفي الذي كان على السطح بالفعل وكان وجهه مطابقاً لصورته في الملف؛ ملامح شابة جريئة تليق بصحفي لبق يحاول تكوين مقاومة سرية ضد نظام حكم، وشعر ناعم مصفف لا يليق كثيراً بخبير سلاح لكنه بلا شك ينم عن عقل إجرامي نشيط، وعينان ضيقتان يكسو مقلتيهما سواد يشير إلى الظلام الكامن بداخله ذلك الشرير، ورأى معه كذلك فتاة

حسناء في مقتبل عمرها ذات وجه رقيق جذاب وشعر كستنائي اللون، وعينين خضراوين كعيني الريم، كانا يتحدثان ويضحكان كأنهما في عالم وردي بعيد عن كل ما حولهما من أحداث ومعاناة، عالم لا يعرف عنه مالك شيئاً ولن يعرف!

كانت البهجة بادية على محياهما، وكان الحب محركاً دقيقاً لخلايا وأعضاء وجهيهما، كانت أفعالهما وحركات جسديهما تفيض بالعاطفة، عاطفة لا تليق هذه المرة بخبير أسلحة ذي لباقة أدبية يحاول تأسيس مقاومة سرية ضد النظام!

لكن مالكاً تذكر ضحاياه السابقين؛ فقد كان منهم فاسدين ومرتشين وقتلة أيضاً يحترفون مغازلة الحسناوات ويتسلون باللعب مع الصبيان؛ فنبذ شكوكه بسرعة وعاد يستكمل مراقبته ومهمته!

وبعد بضع دقائق قاما ليعودا إلى داخل المنزل سوياً، وتحرك مالك ببصره ليراقب مدخل المنزل منتظراً خروجهما في الميعاد المحدد كما يقول الكتاب...احم...أعني الملف!

وأخيراً...غادراه؛ وهنا بدأ مالك عمله!

قام وأعاد المنظار إلى جيبه، وابتعد قليلاً عن حافة السطح إلى الوراء، ثم أخذ نفساً عميقاً وزفره، وركض بأقصى سرعته نحو الحافة مجدداً وقفز عالياً نحو سطح البناية المقابلة الذي كان منخفضاً بعض الشيء، وشعر بينما يطفو جسده في الهواء أنه ينافس الطيور في حريتها!

وظل يدنو بجسده بسرعة من السطح كقذيفة مدفع، وعندما لمسه أخيراً اتخذ وضعية هبوط آمنة وتدحرج إلى الأمام سريعاً ليمتص الصدمة، ولم يتوقف هنا بل انتهز فرصة الأدرينالين المندفع في عروقه وقام سريعاً ليتابع الركض، وخلال ركضه نحو حافة السطح الحالي ليقفز منها إلى السطح التالي سمع أصواتاً حادة يتردد صداها في عقله، كلها تقول له: "اركض...نحو الفريسة الفاسدة القادمة!"

وصل مالك إلى الحافة وقفز منها نحو السطح الآخر ثم هبط بنفس الكيفية، وهكذا كرر ما سبق إلى أن وصل إلى سطح بناية الهدف، ثم اقترب من باب السطح وعالج فتحته بسكينه - ليست بعادة غريبة أو بمسألة صعبة على قاتل أو لص؛ فلا داعي لأن يكون إهمال هذه النقطة موضعاً لانتقادك اللاذع - ثم دلف إلى الداخل.

المشهد السادس

في منزل الهدف...

إن أكثر ما يهواه مالك هو عنصر المفاجأة في جرائمه؛ فيراه ضرباً من الفن الراقي!

وبما أن مالكاً فنان كبير، وأعماله الفنية السابقة تعدت الثلاثين عملاً - اللهم لا حسد - فقد أراد لعمله الفني القادم ألا يقل جودة وجمالاً وشاعرية عن أعماله السابقة...يا له من فنان قدير!

ارتدى مالك قفازاً لا يترك بصمات، وانتظر على أريكة موجودة بالصالة قدوم هدفه، ومرت ساعة تقريباً قبل أن يسمع وقع خطواته وهو عائد إلى المنزل، ثم يعلو على صوت الأقدام صوت معالجته لمقبض الباب الأمامي، ثم يتلوه صوت ارتقائه درجات السلم المؤدي إلى شقته، وعندما أتى دور صوت فتحه لباب الشقة الأمامي قام مالك مسرعاً، وتوجه نحو سلم خشبي أمام مكتبة كبيرة ماثلة أمام الأريكة، ودفعه بقوة مسقطاً إياه على الأرض محدثاً ضجة عالية أثارت قلقاً في نفس الصحفي الذي عندما فتح الباب بحذر ودخل ليتوجه نحو المكتبة كي يفهم سبب الضجة؛ وجد السلم على الأرض لكنه لم يجد أثراً لأي شيء أو أحد...لمدة عشر ثوان!

عشر ثوان قبل أن يتدحرج مالك طولياً من أسفل الأريكة التي اختبأ تحتها ليفاجئه، ويقوم مسرعاً لينفذ اغتيالاً صامتاً...

لكن الهدف يلتفت وتتسع حدقتاه رعباً إثر رؤيته السكين في يد مالك، ولا يمنحه مالك فرصة للتفكير حتى فيركله بقوة دافعاً إياه نحو المكتبة ليصطدم بها، وفي غمرة هلعه يمسك الهدف كتاباً ويلوح به محاولاً ضرب مالك الذي بدأ يقترب منه بسرعة، ويتفادى ضرباته البلهاء التي لا تليق بقائد مقاومة خبير ومحنك يفترض أنه مستعد لمثل هذه الهجمات المفاجئة عليه في أية لحظة، ويماطله لبضع ثوان ليتأكد من شيء ما، ولكن...!

ولكن صوتاً علا فجأة في عقله: "لا تماطل، نفذ! افترس! اذبح! انحر!"

وهنا يتحول مالك بجسده وقسمات وجهه إلى شيطان - على سبيل البلاغة - ويقترب ليطعن هدفه بقوة، ويكرر الطعنات العنيفة الدامية وهو مبتسم، وسط صرخات الهدف المتتالية المختلطة ببكائه وهو يكرر بصوت وكلمات متقطعة: "أرجوك...توقف، إنها...تحبني! لا تمنعني...إياها!"، ثم يسحب السكين فجأة ويتراجع إلى الوراء كمن أفاق من سكره ليصطدم بالأريكة بعدما تأكد أن أنفاس الهدف قد توقفت، ويتدلى بجسده ليجلس على الأرض مذهولاً!

مرت دقائق ظل مالك فيها خاوي الشعور يفكر فيما حدث، ويعيد خلق المشهد السابق في ذهنه مرات متتالية، وبعدها قام إلى الحمام وكأن شيئاً لم يكن - وليس هذا بغريب كونه اعتاد مثل هذه المواقف طوال مسيرته - ونظر إلى المرآة يتأمل وجهه؛ ليجد العلامات التي اعتادها في مثل هذه اللحظات من تبدل ملامحه السريع بين الابتسام إلى حد كشف الأسنان والعبوس مراراً بشكل سريع ولا إرادي ومرعب يجعل من يراه يشك أنه تحت تأثير مس شيطاني ما...!

ملأ مالك حوض الاستحمام بالماء، ثم خرج إلى الصالة ليحمل جثة الهدف ويلقيها فيه، وقبل أن يفعل لاحظ أنه - أي الهدف الذي صوره القائد له على أنه قد يكون خطيراً لدرجة تمكنه من قيادة سرية عسكرية مثلاً أو ما شابه - لا يرتدي دروعاً أو يحمل حتى سلاحاً!

كل ما كان يحمله هو قلم وهاتف محمول أخرجهما مالك من جيبه، ثم حمل جثته وألقاها في الحوض، وشرع في تنظيف الصالة من آثار الدماء بالطرق الروتينية التي يعلمها وتعود عليها.

وبعدها غرق في تفكير عميق، وبدأ يبحث بدقة في أرجاء المنزل ليعرف أكثر عن هذا "الشرير الخارق" - كما صوره القائد - الذي قتله منذ قليل!

إن هذا الصحفي لم يُجِد الدفاع عن نفسه حتى عندما تعمد مالك منحه فرصة لذلك، فكيف للقائد أن يصوره بهذه الصورة الخطيرة كزعيم مقاومة أو ما شابه؟!

بحث مالك في المكان أكثر؛ ووجد لهذا الصحفي في غرفة مكتبه مقالاتٍ كان يعتزم إنهاء كتابتها على ما يبدو، وعندما قرأها بداعي الفضول لم يجد فيها حرفاً واحداً يشير إلى دعوات تكوين مقاومة أو نشوب ثورات أو أي أمور من هذا القبيل؛ إنما كان ما وجده مجرد مقالات نقدية بسيطة لشخص الحكام وأفعالهم مع الاعتراف بفضلهم!

ومعنى هذا أنه لم يكتبها ليعادي الحكام أو يدخل معهم في صراع خاسر كالأحمق ليبدو بطلاً في أعين الناس، بل إنه حسبما بدا لمالك كان ينصح الحكام فيها أكثر مما يعترض عليهم!

وعلى مكتبه بإحدى غرف المنزل رأى كتاب "الأمير" لمؤلفه "نيكولا ميكيافيلي" مفتوحاً على إحدى صفحاته، إضافة إلى مقالات وأوراق بحثية سياسية ونفسية ترتكز في عدة جزئيات على مفاهيم الأنا وتضخمها، وماكينة طباعة بجوار المكتب متصلة بحاسوب، وبمكتبته في الصالة لاحظ عدداً كبيراً من كتب علم النفس والفلسفة والسياسة؛ يبدو أنه كان مشغولاً بدراسة نفوس الحكام كي يستخلص من دراسته تلك نتائج تعينه على اختيار لغة محددة يحاورهم بها دون أن يضحي بحياته، وبالطبع كان من الحماقة أن يظن ذلك؛ فقد نسي أن الحاكم يعبد إلهاً واحداً هو كرسي الحكم، ولربما لا يتردد في تقديم المحكومين كلهم كقرابين فداءً وتعبداً لإلهه، أو إحراق العالم بأسره دون أن ترمش عيناه ليصنع مشهداً بديعاً يشاهده بشغف معه!

أما عن أمور فهم النفس والتعمق فيها وكل هذا الهراء...هي ببساطة هراء كما يبدو!

لكن هذه كلها كانت بديهيات طبيعية عرفها مالك نفسه، المشكلة هنا هي كونه هو السبب في إنهاء حياة هذا البرئ الذي لم يرد سوى الخير بأسلوب خَيِّر، لم يسعَ إلى شهرة أو مجد زائفين، لم يكن أنانياً على الإطلاق أو مغروراً كما توقعه مالك أن يكون في قرارة نفسه، بل كان ينتمي إلى طبقة البشر؛ لديه حياة وحبيبة وربما أصدقاء في مكان ما...لم يكن يحاول على الإطلاق أن يفسح لنفسه مكاناً في مجلس الآلهة، بل أراد فعل الصواب وحسب!

لقد كذب القائد، ولم يكن مالك سوى جزء من لعبة أو عرض ترفيهي دُبِّرَ لإرضاء الآلهة والترويح عنهم!

إن القائد يستغله لقتل من يضايقونه وحسب، سواء أكانوا من الصالحين أم من الطالحين، أي أنه خلف اتفاقه قبل أن يبدأ حتى، وقد كان هذا واضحاً من أسلوبه المشحون بالتكبر والاحتقار، لكن مالكاً وافق على العمل معه لسبب واضح صريح هو وعده إياه أنه سيغتال أهدافاً يسببون مشاكل للنظام لكن فاسدين في الوقت ذاته ويؤذون غيرهم ولو بشكل غير مباشر، لكن يبدو أنه كان ساذجاً أكثر من اللازم!

عندما يدق السياسيون طبول القمع؛ يخرج الصالحون بقيثارة ويخرج الطالحون بجيتار إلكتروني، ويلتحمون جميعاً في سيمفونيات "سقوط الدول" المألوفة لدى مهووسي مطالعة التاريخ!

المهم أن مالكاً سأل نفسه سؤالاً غريباً...أهو حقاً نادم أم يدعي الندم في نفسه؟!

أكان حقاً ساذجاً، أم أنه...أراد فرصة يمارس فيها هوايته المفضلة بدعم وتشجيع وحسب؟!

منذ زمن وهو يحيا حياة لا يذكر حتى كيف بدأت، ويصغي إلى أصوات تأمره بفعل كل شيء، كان كل همه أن يرى الدماء...كانت تلك شهوته ومتعته وغذاءه، وربما إلهه!

لكن ضميره اليقظ - يا عيني يا حبيبي - منعه أن يمارس هوايته تلك دون أن يشعره بالذنب؛ ونتيجة لذلك راح ينتقي الدماء التي يريقها كي يبرر...لوحاته الفنية؛ فأضحت أصواته تحثه على

إنهاء حيوات كل من يؤذون غيرهم بأي طريقة ووسيلة، حتى ولو كان سيعاون الشيطان نفسه في ذلك!

لكن هذا لم يكن سوى ستار؛ فمالك لم يأبه يوماً حقاً للنظام والحرية، والأخلاقيات والتجربة البشرية، إنما كل ما كان يأبه له هو الدماء؛ ولكي يخرس ضميره راحت الأصوات في عقله تتستر على فعلته بأنه يقوم بأعمال طيبة تعيد التوازن إلى حياة البشر!

لكن...أين الصلاح في ذلك؟!

إن هذه الأمور لم تهمه قبلاً لكنها الآن تهمه كونه قتل بريئاً جعل موازينه تختل، وذكره بحقيقة أخفتها الأصوات عنه طوال الأعوام البائسة السابقة من حياته، وها هي الآن تحاصره بأفكار أكثر كي تمنع ثورة ضميره ضدها، وهو يصرخ باكياً من فرط الأسئلة التي لم يعد قادراً على الرد عليها!

لكن الحقيقة تظل واضحة؛ وهي أنه ليس صالحاً على الإطلاق، والأغلب أنه يتلذذ بالعنف والقتل ويستخدم مبرراته ليغطي على فساد روحه!

إن كل ما يسمعه في عقله الآن هو أفكاره وصراخ ضميره وتعنيف أصواته، كل ما يخوضه الآن هو حرب شنيعة مع ذاته، وكل ما يؤمن به الآن هو أنه روح فاسدة لا تستحق أن تتنفس

الهواء الطلق في حديقة عامة إلى جوار بشر طبيعيين، ولا تستحق أن تتمتع بالموسيقى أو تتلذذ بشاعرية الأدب!

إن النيران تتأجج بداخله، ولا تنتظر مني وصفاً أدق لحالته!

ولكن...لا بد من حل!

وبعد أن هدأ عقله قليلاً - أقل مما تتصورون - قام وفتح هاتف الصحفي باحثاً عن رقم حبيبته، وعندما وجده في سجل المكالمات واستنتج أنها هي فعلاً من اتصالاتها المتكررة؛ ضغط زر الاتصال وانتظر الرد...

المشهد السابع

في منزلها...

كان التفكير والقلق يعبثان بعقلها وهي تجوب الصالة ذهاباً وإياباً، وتضع باطن كفها على فمها متسائلة بخوف داخلي في قرارة نفسها عن مغزى هذه الكلمات المقتضبة المقلقة التي سمعتها منذ قليل!

وبينما هي تسير بلا هدف أو نهاية في نفس الخط المستقيم الفاصل بين بداية الصالة ونهايتها، التفتت لتعيد السير إلى نهاية الخط الأخرى؛ لكنها شهقت إثر رؤيتها مالكاً بقناعه الحديدي يقف أمامها!

تراجعت بخوف وقلق شديدين لكن مالكاً أشار لها أن تهدأ، لكن خفقان قلبها ظل مستمراً وقد تسارعت أنفاسها وهي تسأل: "من...أنت؟ و...كيف...دخلت؟!"

قاطعها مالك: "إن ترك النوافذ مفتوحة عادة سيئة، لنقل أن دخولي من إحداها علمكِ عن الأمان أمراً أو اثنين...أنا من اتصل بكِ!"

بدأت الفتاة تهدأ بصعوبة، وأغمضت عينيها وهي تزفر بعمق قائلة: "أنت...أنت من اتصلت بي وأخبرتني أن أظل مكاني وطلبت عنواني لتراني...وقلت أن الأمر خطير! فما الذي يحدث؟!"

جلس مالك على الأرض في أحد أركان الصالة، وضم ركبتيه إلى صدره قليلاً ثم رد وقد بلغ منه الانهيار الداخلي مبلغه وهو يذرف دموعاً لم يستدعها على الإطلاق ولم ترها الفتاة من تحت قناعه: "حبيبكِ، لقد قتلته!"

فغرت الفتاة فاها، وشهقت بحزن وقد تجمعت الدموع في مقلتيها عاجزة عن الهروب، وأخذت ملامحها تتبدل تدريجياً إلى ملامح تليق بشخص خسر كل شيء، لكنها فجأة شرعت تضحك!

عقد مالك حاجبيه متعجباً ونظر إليها من بين دموعه الخفية متسائلاً: "ما المضحك؟ هل أنتِ...بخير؟!"

ردت من بين شهقاتها وضحكاتها المتناقضة: "ربما تظنني مجنونة، لكني في الحقيقة توقعت ذلك وانتظرته منذ فترة، ورغم ذلك فإن وقعه علي ما زال مؤلماً، لكنه أيضاً...مضحك، ومثير للسخرية!"

لم يدرِ مالك ما يقوله؛ فظل يبادلها النظرات إلى أن تابعت الحديث: "كان اسمه نضال، وكان بطلاً...متهوراً بشكل مسالم! لا أظن سافكي الدماء أمثالك يعلمون قيمة الحياة أو الحب أو الأحلام...لقد كان نضال حالماً وهذا ما أودى بحياته؛ فنحن نحيا في عالم يسمح لك كباره بالبقاء على قيد الحياة طالما أنك لا تشعر أو تستمتع بها، وطالما أنك لا تحلم، فقط كن ترساً في عجلة الرأسمالية واعمل لتجني قوت يومك وستكون بخير وسيُسمَح لك بالحياة! لكي تحيا فكل المطلوب منك ألا تتذوق طعم الحياة؛ بل عليك أن تشاهدها وحسب تمر أمامك، وألا

تطمح إلى مستقبل أو حال أفضل، فقط تحيا بشكل روتيني دون هوية أو معنى...آهٍ يا قلبي! إن هذا ليذكرني بجملته: [هوية المرء أحلامه]!"

صمتت لوهلة التقطت فيها أنفاسها، وتابعت: "لقد أراد نضالُ النضالَ بشكل سلمي؛ فعكف على دراسة شخصيات الحكام وقام بهراء كثير نصحته ألا يقوم به، لكنه للأسف أذنب عندما بدأ يحلم...يحلم بتغيير، وبأن تغدو الأمور كلها بخير، وبأن يعتبره الكبار فرداً يستحق الحياة والإفصاح عن الرأي، وذاك كان أغبى أحلامه! ظن أنه سيروضهم ويجعلهم يستمعون إليه إن أظهر حسن نية وخضوع...لكن بمجرد أن بدأ ذلك؛ بدأت أنا من ناحيتي أنتظر موته! ليس لأنني أكرهه، بل لأنني ما كنت لأحتمل ألم وقع المصيبة إن أتت فجأة، لكان قلبي قد توقف عن النبض الآن...لقد حطمتَ حياتي، وأمنيتي الوحيدة الآن أن يجمعني به القدر مجدداً يوماً ما!"

وعندما انتهت من كلامها هذا؛ خلع مالك قناعه كاشفاً عن وجه أنهكته الدموع؛ فشهقت الفتاة مجدداً من هول المفاجأة: "يا إلهي! أنت؟! لكنهم...أعدموك!"

رد مالك بصعوبة: "الإعلام بارع في الكذب كما نعلم كلنا!"

ظلت الفتاة تنظر إليه وقد تبدلت ملامحها إلى خوف جعل مالك يقول في محاولة عبثية لتخفيف حدة توترها: "لن أمسكِ بسوء، أود أن...أقص عليكِ كل شيء وحسب!"

أخذ مالك نفساً عميقاً وزفره بألم، وبدأ يحكي باختصار: "إنني أحيا حياة لا أذكر بدايتها حتى، لا أذكر عائلة أو مدارس أو أياً كان، كل ما أراه في شريط ذكرياتي هو الدماء! كل حياتي عبارة عن أصوات في عقلي تأمرني بالقتل بأبشع الطرق، وعندما بدأت أتقزز من الأمر وبدأ ضميري يصحو نوعاً ما تدخلت الأصوات باقتراح جديد لتخمده مجدداً؛ ألا وهو أن أقتل الفاسدين والسيئين وحسب، ويا للهزل! لقد صَدَّقتُ! وفي لحظة ما...كرهت كل هذا إلى حد جعلني أتمنى الموت، لكن الأصوات منعتني بحجة أن حياتي مهمة لدعم التوازن البشري، ومجدداً صَدَّقتُ! لكنني في الاغتيال الذي سبق دخولي السجن تعمدت ترك أثر يدل علي، عاتبتني الأصوات لكنني قاومتها بشدة وصعوبة إلى أن أتوا وأخذوني، وتأكدوا أنني مرتكب كل الجرائم الغامضة التي لم يتوصلوا إلى حل لها، ووضعوني في زنزانة بائسة أنتظر فيها حكم إعدامي، وجيد أنهم لا يعلمون أنني رأيته حكم خلاصي ونجاتي من ألم لن يفهمه أحد مهما استرسلت في شرحه! عاملني المسجونون كأنني أسطورة من نوع ما ظانين أني أحببت ذلك لكنني كرهته؛ عمر طويل كان إنجازي الأهم فيه بالنسبة إليهم أنني قضيته في إراقة الدماء وإزهاق الأنفس دون أن يكتشف أحد أمري، يا للسخرية! لكن حتى السجن لم يحمني من مصيري المؤلم؛ فقد جاء قائد عسكري يعرض علي فرصة لممارسة القتل تحت أمره وللهروب من السجن، ووعدني أنه سيجعلني أقتل أهدافاً فاسدين، لم أستطع مقاومة شهواتي وأصواتي فقبلت؛ وهكذا خرجت من النعيم إلى الجحيم مجدداً! تدربت، ثم كُلِّفتُ بقتل...نضال...على أنه زعيم مقاومة يجر غيره إلى الهلاك، لكنني حينما أفقت من سكرة الدماء أدركت أنني قد خُدِعتُ، وأن الأصوات لا تأبه حقاً ما إذا كان المقتول بريئاً أم لا...وقد جئت إليك هنا؛ لأنني أود أن تنتقمي مني وتبلغي الشرطة عني مجدداً، وعندما يعيدون سجني سأشهد بكل شيء وأُعدَمُ في سلام!"

كانت عيناها الدامعتان مثبتتين على قسمات وجهه المتألم وهو يقص حكايته تلك، وعندما فرغ من قصها هزت رأسها رفضاً قائلة: "كلا! إن كنت تظن الأمر سهلاً لهذه الدرجة فأنت مخطئ!"

وهنا رد مالك بحدة رافعاً صوته: "إذن فاقتليني أنتِ أيتها الحمقاء! هيا، أنهي علي! إنها فرصتك!"

صمتت لوهلة، ثم تناولت هاتفها وطلبت رقم الشرطة، وأبلغت عن حالة مضايقة بسيطة في منزلها وأعطتهم عنوانها ثم أغلقت المكالمة!

سألها مالك متعجباً: "ما هذا؟! إن الجريمة جريمة قتل!"

ردت: "كما قلت، إياك أن تظن أن الأمور ستكون سهلة!"

وفي مواجهة نظراته المتسائلة تنهدت بصعوبة وأكملت: "إنني الآن أضرب عصفورين بحجر؛ أبلغ الشرطة عنك لكن بتهمة بسيطة كي تستطيع مراوغتهم وأكون أنا قد حققت انتقامي أو جزءاً صغيراً منه يشفي بعضاً من غليلي، وتعود لتنتقم لي وتقتل قائدك هذا، وعندها سيشفى غليلي كلياً!"

-لا أرجوكِ، لا مزيد من القتل...

=اسمع أيها اللعين! لقد قضيتَ عمراً لا تفعل فيه إلا القتل وحصد الأرواح بدم بارد، فلا تخبرني أنك ستتوقف عندي أنا! إياك!

أنهت جملتها ثم صرخت منهارة وقد دفنت وجهها الباكي بين كفيها وهي تجثو على ركبتيها: "أنت تدين لي! أنت تدين لي!"

نظر إليها مالك بحزن وقال: "إذن سأنتظر مجيئهم كي أشفي صدرك بجعلك ترينني أعاني في هروبي منهم، حتى لو كانت معاناة بسيطة!"

لم تنطق بكلمة؛ فتابع مالك: "كنت محقة؛ هذه الحياة التي عشتها ما كان لي أن أدري عنها شيئاً؛ إذ أنني ببساطة لم أحيا أصلاً!"

لم ترد، وظلا صامتين لبضع دقائق كانت الكلمات فيها تهرب من شفاههما كلما أرادا النطق بها، وأخيراً دق الباب معلناً وصول رجلين من الشرطة؛ وهنا نظر مالك إليها وأومأ برأسه ثم ارتدى قناعه؛ وصرخت هي لتوهمهما بأن الأمر خطير مما حذا بهما أن يكسرا الباب، وإثر فعلهما ذلك رأيا جسد مالك يقفز من النافذة المفتوحة - والتي لم تكن المسافة الفاصلة بينها وبين الأرض كبيرة - فخرجا من المنزل والتفا حوله ليطاردا مالكاً بأقصى سرعة، وبالفعل وصلا إليه ورأياه ينتظر قدومها على ما يبدو قبل أن يشرع بالركض مجدداً؛ فطارداه عبر عدة شوارع إلى أن بدأ التعب يغزو جسديهما، لكن على العكس كانت الحيوية والحرية تتدفق في أوصال مالك مع كل خطوة يخطوها، ومع كل صوت يصرخ في عقله: "اركض! اهرب! انتقم!"

وأخيراً توقف مالك لبضع ثوان على رصيف للمارة، وعندما اقترب الضابطان منه ركض بأقصى سرعته عابراً الطريق إلى الرصيف الآخر، وقفز عالياً بأقصى قوته ليتخطى سيارة عابرة أوقفت الضابطين لبضع ثوان سمحت له بالتفوق عليهما والاختفاء داخل الشوارع مجدداً مضيعاً بذلك أثرهما!

وبما أن مالكاً يعلم أن الشرطة لن تتهاون في إعادة البحث عنه فقد قرر أن يتصرف بسرعة، فكر في أخذ الملف من شقته هنا ووضعه في منزل الصحفي كي يجدونه عندما يحققون في اختفائه، لكنه تذكر أن السائق الذي أقله إلى هنا والذي سيعيده مجدداً اشترط عليه أن يعود بالملف وألا يترك أثراً، وهنا ظل مالك يفكر ويفكر...وأخيراً اهتدى إلى حل!

لقد تذكر ملاحظته لوجود طابعة بجوار مكتب الصحفي؛ فأسرع عائداً إلى الشقة ثم أخذ الملف وذهب به إلى شقة الصحفي مجدداً، وهناك طبع نسخة منه وتركها هناك، ثم اتصل بالسائق بطريقة اتفقا عليها ليعلمه بنجاحه، وبأنه بحاجة إلى العودة سريعاً إلى القائد قبل أن تحدث أية مصادفات غير مرغوب بها؛ فوافق السائق وحدد له مكاناً للقاء.

وبالفعل وصل إليه مالك في المكان المحدد، وركب السيارة وجلس في المقعد الخلفي، ثم انطلق السائق إلى وجهته التي يحفظها عن ظهر قلب...!

المشهد الثامن

خاتمة انتظرتَها... أو لم تفعل!

وصل السائق إلى المنشأة الصغيرة الفارغة؛ فترجل مالك من السيارة وطلب من الحرس الخارجي أن يدخل؛ فأدخلوه وتركوه وحده بالداخل ليتوجه بعد ذلك حاملاً نسخة الملف الأصلية إلى غرفة مكتب القائد الذي عندما رآه هب واقفاً من مقعده ليسأل باهتمام: "ما أخبار المهمة؟!"

سأله مالك متعجباً وقد عقد حاجبيه: "ألم يبلغك أحد؟!"

=ماذا؟ كلا! اسمع، أنا لم أعين أحداً لمراقبتك إن كان هذا ما ترمي إليه، لعلك حتى لاحظت أن السائق حينما اتصل بي في الطريق أمرته ألا يعطيني أية تفاصيل ويترك الحديث لك أنت عندما تحضر!

أبدى مالك في قرارة نفسه عجباً من الثقة العمياء؛ منشأة تدريب فارغة داخلياً ومهام اغتيال ميدانية دون مراقبة...إن القائد يحاول كسب ثقة مالك بالتأكيد لكن الأمر يبدو مبالغاً حقاً فيه!

لكن مالكاً قرر انتهاز الفرصة رغم كل شيء، وأخفى شعوره ليرد قائلاً: "تمت بنجاح، وها هو الملف."

تناوله القائد من يد مالك بسعادة ولهفة، وتحرك ليضعه على المكتب المقابل لنافذة الغرفة وهو يقول: "أنت رائع يا مالك! ولسوف تكون المهام القادمة كثيرة ومرضية أكثر لك، إنني حتى أفكر في جعلك قائداً لفرقة..."

التفت القائد ليواجه مالكاً وهو ما يزال يتحدث؛ ليفاجأ به وقد شهر مسدسه في وجهه قائلاً: "أنت تكذب!"

وأتبع عبارته بطلقة انحنى القائد سريعاً ليتفاداها، ثم قام ليصعد على المكتب ويقفز من النافذة نحو الأرض بأقصى سرعته، ويتبعه مالك!

إن مُشاهِد قفزة القائد قد يراها من منظوره قفزة عادية تنتمي إلى مدرسة القفز السينيمائي المبالغ فيه، لكن قفزة مالك في نظر القائد كانت كهبوط الشيطان من السماء ليضرم النيران في روحه!

وعندما هبط مالك ورأى أن القائد قد سبقه ببضع خطوات متجهاً إلى جهاز الإنذار - رغم أن مالكاً لاحظ ملاحظة غريبة؛ هي أن القائد يتعمد الركض بخطوات بطيئة نسبياً نحو وجهته - استل مسدسه مجدداً وأطلق رصاصة دقيقة أصابت ساقه وأسقطته أرضاً؛ فصرخ متألماً وهو يرى مالكاً يقترب منه: "ما الذي تفعله عليك اللعنة؟! لقد أعطيتك كل شيء أردته أيها السفاح السافل!"

رد مالك ببرود وهو يقترب منه كما يقترب المُعَذِّبُ من ضحيته: "إلا الصدق!"

وعندما أصبح على مقربة منه سأله متعجباً: "إنك تحمل مسدساً بكل تأكيد، ما الذي يمنعك الآن من أن تستله وتقتلني؟!"

رد القائد متألماً: "في حال أنك لم تلاحظ؛ فقد أصبت ساقي بشكل يجعل سحب مسدسي صعباً، وقبل أن ألمسه ستكون أنت قد أرديتني قتيلاً بالطبع!"

-مبرر قد يبدو منطقياً رغم أني أشعر أن هنالك أبعاداً أكثر للموضوع، لكن الأمر الغير منطقي فعلاً هو ثقتك العمياء بي تلك!

=وهذه الثقة الآن أندم عليها! لكن مبرري الوحيد لها أنني ظننتك ستكون تحت طوعي إن أعطيتك كل مطالبك!

-وكما قلتُ؛ لم تفعل؛ فقد كذبت علي وجعلتني أقتل صحفياً بريئاً!

=برئ؟! هاها! أحقاً تصدق نفسك؟! أنت سفاح دموي لعين هجرته بالخطأ الشياطين...إن كانت هنالك حقاً شياطين! لقد قتلته بأية حال رغم أنه كان من الممكن مثلاً أن تتحرى بنفسك عنه عندما تصل أو تراقبه أكثر، لكنك أردت قتله ولم تهتم بكونه بريئاً أم لا...أنت أيضاً تكذب يا مالك! إن اهتمامك بالفساد والبراءة هذا مثير للسخرية!

-...أنا أعلم ما أنا عليه، أنا أعلم من أنا!

=حقاً؟! ولِمَ تلومني إذن؟! لأنك تشعر بالذنب وتود أن تحارب ألم هذا الإحساس على حساب قتلي، أليس كذلك؟! غريب أنك لم تشعر بالذنب عندما قتلتَ كل ضحاياك السابقين وغيرت روتينك معي أنا!

-أنت لا تفقه عني شيئاً أيها اللعين!

=...قل لنفسك ما تحب أن تسمع!

-...بالمكتب، كان يمكنك أن تقاتلني وتمنعني، لكنك عوضاً عن ذلك هربت وركضت بخطوات متثاقلة كأنك تنتظر مني أن آتي وأقتلك...لا يعقل أن يكون كل هذا منطقياً!

=...أنا لن أرد على هذا!

-لِمَ اخترتني أنا بالذات؟!

=أنا...لا أستطيع أن أرد على هذا!

-لماذا عليك اللعنة؟!

=لأنني لا أستطيع ولن أفعل! فقط...إن كنت ستفعلها فافعلها، أنهِ أمري!

-...دون أن أحصل على إجابات؟!

=منذ متى والمرء منا يحصل على إجابات لأي شيء بأي حال؟! إنك تأتي إلى الأرض جاهلاً وترحل منها كذلك، لا تفهم أبداً لماذا أتيت ولماذا ذهبت، ولا تجد وقتاً لتفكر حتى في الأمر! حتى أنت لم تحصل على أية إجابات لأي أسئلة طوال حياتك، أنت لا تعرف حتى لماذا أنت هكذا وأنا أراهن على ذلك!

-...من أنت؟!

=أنا مجرد أحمق ظن نفسه إلهاً؛ فظن أن العالم تحت إمرته؛ فارتكب أخطاءً كثيرة في حياته آخرها أخطائي معك والتي أدت إلى هذه اللحظة!

-يبدو أنك قد أسأت فهمي حقاً، أنا لست هنا لخدمتك؛ أنا هنا من أجل الدماء وحسب!

=وهذا حق! حق كنت أعمى جداً لأراه!

-أظننت حقاً أنك لا تقاوم؟! أنه لن يأتي يوم يقول لك أحد فيه لا؟!

=...كما أن لديك شهوة واضحة للدماء فلدي واحدة أيضاً للسلطة! دعنا نقل أن وجودنا يشكل جزءاً معقولاً من الشر في العالم؛ مما يجعلنا ندين له بالفناء! لقد كنا نحن آلهة أنفسنا، لكنني الآن فقط أعلم أنك لست خطأً؛ بل أنت تدبير وانتقام وقدر جاء ممن هو أقوى منا بكثير...يبدو أن الذين آمنوا وسخرنا منهم لم يكونوا حمقى في النهاية!

عقد مالك حاجبيه كونه لم يفهم كثيراً مسألة الإيمان والسخرية؛ فضحك القائد: "لا تؤاخذني، مجرد ثرثرة سخيفة!"

-...أنت محق؛ إننا نستحق الموت، بل الجحيم نفسه!

=...إن كان هنالك واحد؛ فأجل! إن هذا لن ينتهي بتركي حياً يا مالك وأنا أعلم ذلك جيداً، واعترافي بخطاياي لن يغير شيئاً البتة...افعلها، لا تتردد! إنك ظمآن للانتقام، بريقه يلتمع في عينيك بوضوح...اروِ ظمأك!

-...لستَ الوحيد الذي أود الانتقام منه...إن الأصوات تستحق ذلك هي الأخرى!

=...أية أصوات؟!

-...لا تؤاخذني، مجرد ثرثرة سخيفة! الواقع...أنني أود أن أنتقم منك ومن نفسي، ومن أجل ذلك لدي خطة رائعة!

صوب مالك مسدسه نحو رأس القائد وهو يبتعد خطوتين إلى الوراء، وقال: "أخرج سلاحك وصوبه إلي، ودعنا نضغط الزناد في نفس اللحظة!"

نظر إليه القائد بتردد؛ فأردف مالك: "لا أحد منا يستحق وجوده...خلصني من معاناتي وأخلصك من معاناتك!"

ابتسم القائد وضحك حتى بدت أسنانه، وبالفعل حرك يده ببعض من الصعوبة ليلتقط مسدسه ويصوبه نحو مالك قائلاً: "نخب الخطايا الصعبة يا مالك!"

ابتسم مالك رغماً عنه ورد: "نخب الخطايا الصعبة أيها الإله الزائف!"

وضغط كل منهما على زناد مسدسه في اللحظة؛ فانطلقت رصاصتان يمكن أن نقول أنهما البطلتان الحقيقيتان لهذه القصة؛ لتنهيا هذه المأساة التراجيدية الزائدة عن حدها إلى الأبد...!

تمت بحمد الله